

قال : آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا عبد المؤمن حدثنا عمر بن شقيق حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنهم أنهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فكان رجال يكتبون ويحلى عليهم أبي بن كعب فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) الآية فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبي بن كعب إن رسول الله ﷺ أقراني بعدها آيتين (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة قال هذا آخر ما نزل من القرآن ففتح بما فتح به بالله الذي لا إله إلا هو وهو قول الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وهذا غريب أيضاً ، وقال أحمد حدثنا علي بن بحر حدثنا علي بن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى عمر بن الخطاب فقال من معك على هذا ؟ قال لا أدري والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتها وحفظتها فقال عمر وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوا فيها فوضعوها في آخر براءة ، وقد تقدم الكلام أن عمر ابن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن فأمر زيد بن ثابت فجمعه وكان عمر يحضرم وهم يكتبون ذلك ، وفي الصحيح أن زيدا قال فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمه بن ثابت أو أبي خزيمه ، وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عند رسول الله ﷺ كما قال خزيمه بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم ، وقد روى أبو داود عن يزيد بن محمد عن عبد الرزاق بن عمر - وقال كان من ثقات المسلمين من المتعبدين عن مدرك بن سعد قال يزيد شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه (١) ، وقد رواه ابن عساکر في ترجمة عبد الرزاق عن عمر هذا من رواية أبا زرعة الدمشقي عنه عن أبي سعد مدرك بن أبي سعد الفزارى عن يونس بن ميسرة بن حليس عن أم الدرداء سمعت أبا الدرداء يقول : ما من عبد يقول حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات صادقاً كان بها أو كاذباً إلا كفاه الله ما أهمه . وهذه زيادة غريبة ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق عن جده عبد الرزاق بن عمر بسنده فرفعه فذكر مثله بالزيادة وهذا منكر والله أعلم آخر تفسير سورة براءة والله الحمد والمنة

(تفسير سورة يونس عليه السلام وهي مكية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْرٌ مُّبِينٌ)

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة ، وقال أبو الضحى عن ابن عباس في قوله تعالى (الر) أي أنا الله أرى . وكذلك قال الضحاك وغيره (تلك آيات الكتاب الحكيم) أي هذه آيات القرآن الحكم المبين وقال مجاهد (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) (٢) وقال الحسن التوراة والزبور : وقال قتادة : (تلك آيات الكتاب) قال الكتب التي كانت قبل القرآن . وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه : وقوله (أكان للناس عجباً) الآية . يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون

(١) كذا في الأصول بالاستثناء ولا يظهر إلا في الرواية التالية المبدوءة بالنفي

(٢) يياض بالأصل

الماضين من قولهم (أبشر يهدوننا) وقال هود وصالح لقومهما (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم) وقال تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) وقال الضحاك عن ابن عباس لما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكروا منهم فقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد قال فأنزل الله عز وجل (أكان للناس عجباً) الآية . وقوله (أن لهم قدم صدق عند ربهم) اختلفوا فيه فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق) يقول سبقت لهم السعادة في الذكر الأول وقال العوفي عن ابن عباس (أن لهم قدم صدق عند ربهم) يقول أجرا حسناً بما قدموا وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا كقوله تعالى (لينذر بأساً شديداً) الآية وقال مجاهد (أن لهم قدم صدق عند ربهم) قال الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقهم وتسييحهم قال ومحمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم ، وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقال قتادة سلف صدق عند ربهم واختار ابن جرير قول مجاهد أنها الأعمال الصالحة التي قدموها كما يقال له قدم في الإسلام كقول حسان

لنا القدم العليا إليك وخلفنا * لأولنا في طاعة الله تابع

وقول ذى الرمة : لكم قدم لا ينكر الناس انها * مع الحسب العادي طمت على البحر

وقوله تعالى (قال الكافرون إن هذا الساحر مبین) أى مع أننا بعثنا إليهم رسولا منهم رجلا من جنسهم بشيرا ونذيرا (قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) أى ظاهر وهم الكاذبون في ذلك

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام قيل كهذه الأيام وقيل كل يوم كألف سنة مما تعدون كما سيأتي بيانه ثم استوى على العرش والعرش أعظم المخلوقات وسقفها قال ابن أبي حاتم حدثنا حجاج ابن حمزة حدثنا أبو أسامة حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال سمعت سعدا الطائي يقول : العرش يا قوته حمراء ، وقال وهب بن منبه خلقه الله من نوره وهذه غريب وقوله (يدبر الأمر) أى يدبر الخلائق (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) ولا يشغله شأن عن شأن ولا تغلظه المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا يلهمه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار والعمران والقفار (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) الآية (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) وقال الدراوردي عن سعد بن إسحق بن كعب بن عجرة أنه قال حين نزلت هذه الآية (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض) الآية لهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب فقالوا لهم من أتمم ؟ قالوا من الجن خرجنا من المدينة أخرجتنا هذه الآية رواه ابن أبي حاتم وقوله (ما من شئ من شئ إلا من بعد إذنه) كقوله تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وقوله تعالى (وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقوله (ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون) أى أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له (أفلا تذكرون) أى أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلها غيره وأتمتعون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم؟ ليقولن الله) وقوله (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون) وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه ، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط) أى بالعدل والجزاء الأوفى (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أى بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من محموم (هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن)

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً وجعل شعاع القمر نورا ، هذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لثلاثيها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو صغيرا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل بإداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) وقوله تعالى (والشمس والقمر حسبانا) الآية وقوله في هذه الآية الكريمة (وقدره) أى القمر (منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) فبالشمس تعرف الأيام وبسيرة القمر تعرف الشهور والأعوام (ما خلق الله ذلك إلا بالحق) أى لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة كقوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) وقوله (تفصل الآيات) أى نبين الحجج والأدلة (لقوم يعلمون) وقوله (إن في اختلاف الليل والنهار) أى تعاقبها إذا جاء هذا ذهب هذا وإذا ذهب هذا جاء هذا لا يتأخر عنه شيئا كقوله تعالى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) وقال (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) الآية . وقال تعالى (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا) الآية وقوله (وما خلق الله في السموات والأرض) أى من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال (وكأين من آية في السموات والأرض) الآية وقوله (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تعنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وقال (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) وقال (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب) أى العقول : وقال ههنا (لآيات لقوم يتقون) أى عقاب الله وسخطه وعذابه

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاءه شيئا ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم . قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها والشرعية فلا يأتمرون بها بأن ما واهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والحطايا والأجرام مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ *
دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم ، يحتمل أن تكون الباء هنا سببية فتقديره بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله (يهديهم ربهم بإيمانهم) قال يكون لهم نوراً يمشون به ، وقال ابن جريج في الآية يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له من أنت ؟ فيقول أنا عمك فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله تعالى (يهديهم ربهم بإيمانهم) والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلزم صاحبه ويلاذه حتى يقذفه في النار ، وروى نحوه عن قتادة مرسلًا فإنه أعلم ، وقوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أى هذا حال أهل الجنة. قال ابن جريج أخبرت أن قوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم) قال إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا سبحانك اللهم وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله (وتحيتهم فيها سلام) قال فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم فذلك قوله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم (سبحانك اللهم) قال فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحيفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى قال فيأكل منهن كلهن ، وقال سفيان الثوري إذا أراد أحدهم أن يدعو بشئ قال (سبحانك اللهم) وهذه الآية فيها شبهة من قوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام) الآية . وقوله (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قِيلًا سَلَامًا) وقوله (سلام قولاً من رب رحيم) وقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) الآية وقوله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو الحمود أبداً ، العبود على طول الداء ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) إلى غير ذلك من الأحوال التى يطول بسطها وأنه الحمود فى الأولى والآخرة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فى جميع الأحوال ولهذا جاء فى الحديث: إن أهل الجنة يلهمون التسييح والتحميد كما يلهمون النفس . وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم فتكرر وتعاد وتزداد فليس لها انقضاء ولا أمد فلا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَذَرُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضررهم وغضبهم وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك فلهمذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفًا ورحمة كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالخير والبركة والنماء ولهذا قال (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم) الآية أى لو استجاب لهم كلما دعوه به فى ذلك لأهلكهم ولكن لا ينبغي الاكثار من ذلك كما جاء فى الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا محمد بن معمر حدثنا يعقوب بن محمد حدثنا حاتم بن إسماعيل حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو جزرة عن عبادة بن الوليد حدثنا جابر قال : قال رسول الله ﷺ لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم . لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » ورواه أبو داود من حديث حاتم بن إسماعيل به . وقال البزار وتفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصارى لم يشاركه أحد فيه وهذا كقوله تعالى (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) الآية ، وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) الآية

هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعهه . فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر كقوله (وإذا مسه الشرف ذو دواء عريض) أي كثير وهما في معنى واحد وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وعوده وقيامه وفي جميع أحواله فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء (مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فانه مستثنى من ذلك كقوله تعالى (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «عجبا المؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له: إن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له وإن أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»

﴿ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءهم به من البينات والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « إن الدنيا حاوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء » وقال ابن جرير حدثني الثني حدثنا زيد بن عوف ربيعة بهذا أنبا ناهما عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر رأيت فيما يرى النائم كأن سببا دلي من السماء فانتشط رسول الله ﷺ ثم أعيد فانتشط أبو بكر ثم ذرع الناس حول النبر ففضل عمر بثلاث أذرع حول النبر فقال عمر : دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها فلما استخلف عمر قال : يا عوف رؤياك ؟ قال وهل لك في رؤياي من حاجة أو لم تنتهني ؟ قال ويحك إني كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه فقص عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى النبر بهذه الثلاث الأذرع قال : أما إحداهن فانه كان خليفة . وأما الثانية فانه لا يخاف في الله لومة لائم ، وأما الثالثة فانه شهيد ، قال : فقال يقول الله تعالى (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) فقد استخلفت يا ابن أم عمر فناظر كيف تعمل ؟ وأما قوله فإني لا أخاف في الله لومة لائم فيما شاء الله وأما قوله (شهيد) فإني لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به ؟

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بَقَرَةٌ أَوْ غَيْرُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي أَنفُسِي إِنَّ أَتْبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن نعت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المرعزين عنه أنهم إذا قرأ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له ائت بقرآن غير هذا أي رد هذا وجننا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي) أي ليس هذا إلى إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله (إن أتبع إلا ما يوحى إلي إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) ثم قال محتجا عليهم في صحة ما جاءهم به (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيتته وإرادته ، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثي الله عز وجل لا تنتقدون على شيئا تعمصوني به ولهذا قال : (فقد لبث فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ قال هرقل لأبي سفيان هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان قلت لا ، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق * والفضل ما شهدت به الأعداء * فقال له هرقل فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة ، وعن سعيد بن المسيب ثلاثا وأربعين سنة ، والصحيح المشهور الأول

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى لا أحد أظلم ولا أعنى ولا أشد إجراما (ممن افتري على الله كذبا) وتقول على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك فليس أحد أكبر جرما ولا أعظم ظلما من هذا ، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشبهه حال هذا بالأنبياء فان من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فان الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حنوس الظلماء ، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلة الكذاب وسجاح والأسود العنسي . قال عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (١) فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب قال فكان أول ما سمعته يقول « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله ﷺ فيما قال له من رفع هذه السماء قال « الله » قال ومن نصب هذه الجبال ؟ قال « الله » قال ومن سطح هذه الأرض ؟ قال « الله » قال فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال « اللهم نعم » ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ويحلف له رسول الله ﷺ فقال له صدقت ، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص ، فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا ، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه . وقال حسان بن ثابت لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تأتيك بالخبير

وأما مسيلة فمن شاهده من ذوى البصائر علم أمره لا محالة بأقواله الركيكة التي ليست بفضيحة ، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة ، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة ، وكمن فرق بين قوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) إلى آخرها . وبين قول مسيلة قبحه الله ولعنه : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تنقين لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . وقوله قبحه الله لقد أنعم الله على الحلبى ، إذ أخرج منها نسمة تسعى ، من بين

(١) يعنى قومه اليهود . وأما العرب وهم الأنصار فكانوا في أشد الغبطة والسرور .

صفاق وحشى . وقوله خلدته الله في نار جهنم ، وقد فعل : الفيل وما أدراك ما الفيل ، له خرطوم طويل ، وقوله أبعدته الله عن رحمته : والعاجنات عجنا ، والحازبات خبزا ، واللاقيات لقما ، إهالة وسنا ، إن قريشا قوم يعتدون . إلى غير ذلك من الخرافات والهنديانات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء ، ولهذا أرغم الله أنفه ، وشرب يوم الحديقة حنقه . ومزق شمله . ولعنه صجبه وأهله . وقدموا على الصديق تائبين ، وجاءوا في دين الله راغبين فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضى عنه أن يقرأوا عليه شيئا من قرآن مسيلة لعنه الله فسألوه أن يعفهم من ذلك فأبى عليهم إلا إن يقرأوا شيئا منه لیسععه من لم یسعه من الناس فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم فقرأوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه ، فلما فرغوا قال لهم الصديق رضى الله عنه ويحكم أين كان يذهب بقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إل ، وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلة وكان صديقاله في الجاهلية وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلة ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المدة . فقال لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة فقال : وماهى فقال (والعصر إن الإنسان لفي خسر) إلى آخر السورة فسكر مسيلة ساعة ثم قال وأنا قد أنزل على مثله فقال وما هو فقال يا وبر ، يا وبر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حفر تهر . كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب . فاذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه ، وحال مسيلة لعنه الله وكذبه ، فكيف بأولى البصائر والنبي ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى ، ولهذا قال الله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ، ومن قال سأزل مثل ما أنزل الله) وقال في هذه الآية الكريمة (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون) وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل . وقامت عليه الحجج ، لا أحد أظلم منه كما في الحديث « أعتى الناس على الله رجل قتل نبيا أو قتله نبي »

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئا ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبدا ولهذا قال تعالى (قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض) وقال ابن جرير معناه أنخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض ؟ ثم زه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال (سبحانه وتعالى عما يشركون) ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) وقوله (ولولا كلمة سبقت من ربك) الآية أى لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحججة عليه ؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لفضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعدت الكافرين

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِيُفَصِّلِ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ مِنْ أُمَّةٍ مَّا يَشَاءُ وَيَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ إِنَّمَا أَنزَلْتُ الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾

أى ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه يعنون كما أعطى الله نوحا الناقة وأن يحول لهم الصفا ذهباً أو يزج عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأهباراً أو نحو ذلك مما الله عليه قادر ولكنه

حكيم في أفعاله وأقواله كما قال تعالى (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا * بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) وكقوله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية يقول تعالى : إن سنقي في خلقي أي إذا آتيتهم ما سألوها ، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة . ولهذا لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين إعطائهم ما سألوها فإن آمنوا وإلا عذبوا وبين إنظارهم اختار انظارهم كما حلم عنهم غير مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى إرشادا لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوها (قل إنما الغيب لله) أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور (فانتظروا إني معكم من المنتظرين) أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله في فيكم . هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته صلى الله عليه وسلم أعظم مما سألوها حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق اثنتين فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه . وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوها وما لم يسألوا ، ولو علم الله منهم أنهم سألوها ذلك استرشادا وثبنا لأجابه ، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعتنا فتركهم فيما رابهم وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد كقوله تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية وقوله تعالى (ولو أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) الآية ، ولما فهم من المكابرة كقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) الآية ، وقوله تعالى (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا) الآية ، وقال تعالى (ولو أنزلنا عليك كتابا في قرطاس فلسوه بأيديهم لقال الذين الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوها لأنه لا فائدة في جوابهم لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم ولهذا قال (فانتظروا إني معكم من المنتظرين)

﴿ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرِّ آءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِن رَّسُلْنَا يَكْتُمُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي النَّبْرِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ أَحْزَقٍ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُغِيكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

خبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة ، والحصب بعد الجذب . والمطر بعد القحط ونحو ذلك (إذا لهم مكر في آياتنا) قال مجاهدا استهزاء وتكذيب كقوله (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أوقائنا) الآية ، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح على أثر هباء كانت من الليل أي مطر ثم قال « هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال : « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب » وقوله (قل الله أسرع مكرًا) أي أشد استدراجا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه والكاثبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصى نه عليه ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والتقير والقطمير ، ثم أخبر تعالى أنه (هو الذي يسيركم في البر والبحر) أي يحفظكم ويكلؤكم بحراسته (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها) أي بسرعة سيرهم رافقين فبينما هم كذلك إذ (جاءتها) أي تلك السفن (ريح عاصف) أي شديدة (وجاءهم الموج من كل مكان) أي اغتم البحر عليهم (وظنوا أنهم أحيط بهم) أي هلكوا (دعوا الله مخلصين له الدين) أي لا يدعون معه صنما ولا وثنا بل يفردون بالدعاء والابتهال كقوله تعالى (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) وقال ههنا (دعوا الله

مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه) أى هذه الحال (لنكونن من الشاكرين) أى لا نشرك بك أحداً ولنفردك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا ، قال الله تعالى (فلما أنجاهم) أى من تلك الورطة (إذا هم يبيغون في الأرض بغير الحق) أى كأن لم يكن من ذلك شيء (كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) ثم قال تعالى (يا أيها الناس إنما بئعكم على أنفسكم) أى إنما يذوق وبال هذا البغي أتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم كما جاء في الحديث « ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » وقوله (متاع الحياة الدنيا) أى إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة (ثم إلينا مرجعكم) أى مصيركم وما لكم (فننبشكم) أى فنحبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا تَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهَآ أَمْرًا نَّاسِيًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة اضمائها وزوالها بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء بما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وماتاً كل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) أى زينتها الفانية (وازينت) أى حسنت بما خرج في رباهما من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (وظن أهلها) الذين زرعوها وغرسوها (أنهم قادرون عليها) أى على جذاذها وحصادها فينبأهم كذلك إذ جاءتها صاعقة أوريج شديدة باردة فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها ولهذا قال تعالى (أتأها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً) أى يابساً بعد الخضرة والنضارة (كأن لم تغن بالأمس) أى كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك . وقال قتادة : كأن لم تغن كأن لم تنعم ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن . ولهذا جاء في الحديث « يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة فيقال له هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا ، ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة ثم يقال له هل رأيت يؤساقط ؟ فيقول لا » وقال تعالى إخباراً عن المهلكين (فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم ينووا فيها) ثم قال تعالى (كذلك نفصل الآيات) أى نبين الحجج والأدلة (لقوم يتفكرون) فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها وتمسكهم وتقمهم بموعيدها وتفلتها عنهم فان من طبعها الحرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها ، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة الكهف (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً) وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا . وقال ابن جرير : حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : سمعت مروان يعنى ابن الحكم يقرأ على المنبر : وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، وما كان ليهلكهم إلا بذنوب أهلها . قال قد قرأتها وليست في المصحف ، فقال عباس بن عبد الله بن عباس هكذا يقرأها ابن عباس فإرسالوا إلى ابن عباس فقال هكذا أقرأني أبي بن كعب وهذه قراءة غريبة وكأنها زيدت للتفسير وقوله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام) الآية . لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام أى من الآفات ، والتقائص والتكبات فقال (والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) قال أيوب عن أبي قلابة عن النبي ﷺ قال « قيل لى لثم عينك وليعقل قلبك ولتسمع أذنك فنامت عيني وعقل قلبي وصمعت أذني ثم قيل لى (١) . كمثل سيد بنى داراً ثم صنع مأدبة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعى دخل الدار

(١) هنا يباين بالأصل .

وأكل من المأدبة ورضى عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد والله السيد والدار الاسلام والمأدبة الجنة والداعي محمد ﷺ « وهذا حديث مرسل وقد جاء متصلا من حديث الليث عن خاله بن يزيد عن سعيد بن إبى هلال عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال « إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسى وميكائيل عند رجلى يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، وإنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فأنه الملك والدار الاسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل الاسلام ومن دخل الاسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها » رواه ابن جرير وقال قتادة حدثني خليل العصري عن أبي الدرداء مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ « ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ماقل وكفى خيرا مما كثر وألهى » قال وأنزل في قوله يا أيها الناس هلموا إلى ربكم (والله يدعو إلى دار السلام) الآية . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير

﴿ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) وقوله (وزيادة) هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحدود والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة عين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فانه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضل ورحمته وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد ابن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقاتدة والسدى ومحمد بن إسحق وغيرهم من السلف والخلف وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد حدثنا عفان أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يقتل موازيننا ؟ ألم يبيض ووجهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار - قال - فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعظام الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم » وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة من حديث حماد بن سلمة به ، وقال ابن جرير حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني شبيب عن أبان عن أبي تيممة الهجيمي أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ « إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى يا أهل الجنة - بصوت يسمع أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه الرحمن عز وجل » ورواه أيضا ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر الهذلي عن أبي تيممة الهجيمي به وقال ابن جرير أيضا حدثنا ابن حميد حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج عن عطاء عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال « النظر إلى وجهه الرحمن عز وجل » وقال أيضا حدثنا ابن عبد الرحيم حدثنا عمر بن أبي سلمة سمعت زهيراً عن سمع أبا العالية حدثنا أنى بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : « الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه الله عز وجل » ورواه ابن أبي حاتم أيضا من حديث زهير به . وقوله تعالى (ولا يرهق وجوههم قتر) أى قمام وسواد في عرصات المحشر كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القتر والغبرة (ولا ذلة) أى هوان وصغار أى لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر بل هم كما قال

تعالى في حقهم (فواقهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) أى نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضلته ورحمته آمين

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهُم مُّذَمَّنِينَ ذَلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك عطف بذكر حال الأشقياء فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك (وترهقهم) أى تعثرهم وتعلوهم ذلة من معاصمهم وخوفهم منها كما قال (وترام يعرضون عليها خاشعين من الذل) الآية وقال تعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون * إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقمعي رءوسهم) الآيات وقوله (ما لهم من الله من عاصم) أى مانع ولا واق يقيم العذاب كقوله تعالى (يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر) وقوله (كأنما أغشيت وجوههم) الآية إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة كقوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين استودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فدعوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) وقوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة) الآية

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَعْبُدُونَ * فَكُفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى (ويوم نحشرهم) أى أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر كقوله (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) (ثم نقول للذين أشركوا) الآية أى الزموا أتم وهم مكانا معينا امتازوا فيه عن مقام المؤمنين كقوله تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وقوله (ويوم تقوم الساعة يومئذ يفترون) وفي الآية الأخرى (يومئذ يصدعون) أى يصيرون صدعين وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ولهذا قيل ذلك (1) يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا ، وفي الحديث الآخر « نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس » وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخبارا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة (مكانكم أتم وشركاؤكم ، فزيلنا بينهم) الآية أنهم أنكروا عبادتهم وتبرءوا منهم كقوله (كلا سيكفرون بعبادتهم) الآية وقوله (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وقوله (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) الآية وقوله في هذه الآية إخبارا عن قول الشركاء فمارجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) الآية أى ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها ، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم والله شهيد بيننا وبينكم أنا مادعونكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك ، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفنى عنهم شيئا ، ولم يأمرهم بذلك ولا رضى به ولا أراده بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه وقد تركوا عبادة الحى القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء ، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه أمرا بعبادته وحده لا شريك له ناهيا عن عبادة ما سواه كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة)

وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون؟) والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكروا في كتابه وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد ، وقوله تعالى (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر كقوله تعالى (يوم تبلى السرائر) وقال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقال تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وقد قرأ بعضهم (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) وفسرها بعضهم بالقراءة ، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمت من خير وشر وفسرها بعضهم بحديث «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث ، وقوله (وردوا إلى الله مولاهم الحق) أي ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار (وضل عنهم) أي ذهب عن المشركين (ما كانوا يفترون) أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَدَأَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلهيته فقال تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض) أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقا بقدرته ومشيبته فيخرج منها حبا وعنبا وقصبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهها وأبا) إله مع الله؟ فسيقولون الله (أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه؟) وقوله (أمن يملك السمع والأبصار) أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها كقوله تعالى (قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار) الآية . وقال (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم) الآية وقوله (ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك وأن الآية عامة لذلك كله وقوله (ومن يدبر الأمر) أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يستل عما يفعل وهم يشئون (يسألهم في السموات والأرض كل يوم هو في شأن) فالملك كله العلوي والسفلي وما فهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه (فسيقولون الله) أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون به (فقل أفلا تتقون) أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم وقوله (فذلكم الله ربكم الحق) الآية أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة (فماذا بعد الحق إلا الضلال) أي فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له (فأنى تصرفون) أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء ، وقوله (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا) الآية أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرزاق المتصرف في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده، فلماذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار كقوله (قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين)

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي ﴾

إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ قَمًا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٤٧﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد (قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ؟) أي من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيها من الخلائق ، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدؤها ببناء ما فيها ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً (قل الله) هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له (فأنتى توفكون) أي فكيف تصرفون عن طريق الرشيد إلى الباطل (قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل الله يهدى للحق) أي أتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال ، وإنما يهدى الحيارى والضلال وقلب القلوب من الغنى إلى الرشيد الله الذي لا إله إلا هو (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى) أي أيتبع العبد الذي يهدى إلى الحق ويصبر بعد العمى أم الذي لا يهدى إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) وقال لقومه (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) إلى غير ذلك من الآيات وقوله (فما لكم كيف تحكمون) أي فإيا بالكم أن يذهب بقولكم كيف سويتم بين الله وبين خلقه وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا ، وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم المهادى من الضلالة بالعبادة وحده وأخلصتم إليه الدعوة والانابة ، ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً وإنما هو ظن منهم أي توهم وتخيل ، وذلك لا يغنى عنهم شيئاً (إن الله عليم بما يفعلون) نهديد لهم ووعد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تِهِمْ تَأْوِيلَهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لأنه فصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني العريضة العريضة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ولهذا قال تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبهه هذا كلام البشر (ولكن تصديق الذي بين يديه) أي من الكتب التقدمة ومهيمناً عليه ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل وقوله (وتفصيل الكتاب لاربي فيه من رب العالمين) أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانا شافياً كافياً حقاً لا مريبة فيه من الله رب العالمين كما تقدم في حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم أي خبر عماسلف وعماسيأتي وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه . وقوله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أي إن ادعيتم وافتريتكم وشككتكم في أن هذا من عند الله وقتلتم كذبا ومينا إن هذا من عند محمد فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا بسورة مثله ، أي من جنس هذا القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ، وهذا هو المقام الثالث في التحدي فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده وليستعينوا بمن شاءوا وأخبر أنهم لا يقدر على ذلك ولا سبيل لهم إليه فقال تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض

ظهيراً) ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وكذا في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار) الآية ، هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم اليها المنتهى في هذا الباب ، ولكن جاءهم من الله مالا قبل لأحده ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من الله وأن هذا لا استطاع لبشر إلا بإذن الله . وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، ومثل هذا لا يدخل للعلاج والدواء فيه فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله . ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله صلى عليه وسلم أنه قال « مامن نبي من الأنبياء إلا ووقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » . وقوله (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) يقول بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه (ولما يأتهم تأويله) أى ولم يحصلوا ما فيه من الهدى والدين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً (كذلك كذب الذين من قبلهم) أى من الأمم السالفة (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) أى فانظر كيف أهلكتهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم . وقوله (ومنهم من يؤمن به) الآية ، أى ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به (ومنهم من لا يؤمن به) بل يموت على ذلك ويبعث عليه (وربك أعلم بالفسدين) أى وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ؟ ومن يستحق الضلالة فيضلّه ، وهو العادل الذي لا يجوز ، بل يعطى كلا ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لإله الإلهو

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٌّ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الضُّمُّمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الضُّمَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ * إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذبت هؤلاء المشركون فتنبرأ منهم ومن عملهم (ققل لي عملي ولكم عملكم) كقوله تعالى (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) إلى آخرها ، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله) الآية ، وقوله (ومنهم من يستمعون إليك) أى يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان وفي هذا كفاية عظيمة ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم فإنك لا تقدر على إسراع الأصم وهو الأطرش فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله (ومنهم من ينظر إليك) أى ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولى البصائر والنهى ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار (وإذ أروك إن يتخذونك إلا هزواً) الآية ، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى ، وفتح به أعينا عمياً ، وآذانا صماً ، وقلوبا غلفاً ، وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يستل عما يفعل وهم يستلون لعلمه وحكمته وعدله ، ولهذا قال تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم

محرما فلا تظالموا - إلى أن قال في آخره - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم بإها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه « رواه مسلم بطوله

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَبَّانٌ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى مذكرا للناس قيام الساعة وحصرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة (ويوم يحشرهم) الآية . كقوله (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وكقوله (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وقال تعالى (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثالهم طريقه إن لبثتم إلا يوما) وقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) الآيتين ، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاستل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) ، وقوله (يتعارفون بينهم) أى يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه (فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم) الآية ، وقال تعالى (ولا يسأل حميم حميما) الآيات وقوله (قد خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ألا ذلك هو الحسران المبين مهتدين) كقوله تعالى (ويل للمكذبين) لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ألا ذلك هو الحسران المبين ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا رسوله ﷺ (وإما نرينك بعض الذي نعدهم) أى ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم (أو توفيناك فإلينا مرجعهم) أى مصيرهم ومنقلبهم والله شهيد على أفعالهم بعدك وقد قال الطبراني ، حدثنا عبد الله ابن أحمد حدثنا عقة بن مكرم حدثنا أبو بكر الحنفى حدثنا داود بن الجارود عن أبي السليل عن حذيفة بن أسيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « عرضت على أمى البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها » فقال رجل يا رسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق ؟ فقال « صوروا لى فى الطين حتى أنى لأعرف بالإنسان منهم من أحدم بصاحبه » ورواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن عقة بن مكرم عن يونس بن بكير عن زياد بن المنذر عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد به نحوه . وقوله (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم) قال مجاهد يعنى يوم القيامة (قضى بينهم بالقسط) الآية كقوله تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها) الآية فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم وحفظهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم فى الحلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضى لهم كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق » فأتمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْجِرُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيْتًا أَوْ نَهَارًا

مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَتَمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ءَأَلْتُمْنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه كقوله (يستعجل بها الدين لا يؤمنون بها والدين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) أى كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عينا ، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال (قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا) الآية أى لأقول إلا ما علمنى ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعنى الله عليه فأنا عبده ورسوله إليكم وقد أخبرتكم بمجى الساعة وأنها كائنة ولم يطلعنى على وقتها ولكن (لكل أمة أجل) أى لكل قرن مدة من العمر مقدره فاذا انقضى أجلهم (فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) كقوله (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) الآية ثم أخبر أن عذاب الله سيأتهم بغتة فقال (قل أرأيتم أن أتاكم عذابه بيانا أونهارا ؟) أى ليلا أونهارا (ماذا يستعجل منه المجرمون * أتم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون) يعنى أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا (ربنا بصرنا وسمعنا) الآية وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) (ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد) أى يوم القيامة يقال لهم هذا تبسكتنا وتقرىعا كقوله (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحروا هذا أم أتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون)

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى ويستخبرونك (أحق هو) أى العاد والقيامة من الأجداد بعد صيرورة الأجسام ترابا (قل إى وربى إنه لحق وما أتم بمعجزين) أى ليس صيرورتكم ترابا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ف(إنما أمره إذا أراد شيئا أن له كن فيكون) وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر العاد فى سورة سبأ (وقال الذين كفروا لانا أتينا الساعة قل بلى وربى لانا نأتينكم) وفى التغابن (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لبعثن ثم لتنبؤن بما علمم وذلك على الله يسير) ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو اقتدى من عذاب الله بلاء الأرض ذهابا (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط) أى بالحق (وهم لا يظلمون)

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأن وعده حق كائن لا محالة وأنه يحيى ويميت وإليه مرجعهم ، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق فى سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم)

أى زاجر عن الفواحش (وشفاء لما فى الصدور) أى من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس وندس وهدى ورحمة أى يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى ، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسار) وقوله (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) الآية ، وقوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) أى بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به (هو خير مما يجمعون) أى من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الناهية لا محالة كما قال ابن أبي حاتم فى تفسير هذه الآية وذكر بسنده عن بقة بن الوليد عن صفوان بن عمرو سمعت أئفيع بن عبد الكلاعى يقول لما قدم خراج العراق إلى عمر رضى الله عنه خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل فإذا هى أكثر من ذلك فجعل عمر يقول الحمد لله تعالى ويقول مولاه هذا والله من فضل الله ورحمته فقال عمر كذبت ليس هذا . هو الذى يقول الله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته) الآية وهذا مما يجمعون وقد أسنده الحافظ أبو القاسم الطبرانى فرواه عن أبى زرعة الدمشقى عن حيوة بن شريح عن بقة فذكره

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نزلت إنكار على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل كقوله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحث والأنعام نصيباً) الآيات وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى إسحق سمعت أبا الأحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال «هل لك مال؟» قلت نعم . قال من أى المال؟ قال قلت من كل المال من الإبل والرقيق والحيل والغنم فقال «إذا آتاك الله مالا فلير عليك - وقال - هل تنتج إبلك صحاحا آدمها فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فنقول هذه بجر وتشق جلودها وتقول هذه صرم ونحرمها عليك وعلى أهلك» قال نعم قال «فإن ما آتاك الله لك حل ، ساعد الله أشد من ساعدك وموسى الله أحد من موساك» وذكر عام الحديث ، ثم رواه عن سفيان بن عيينة عن أبى الزعراء عمرو بن عمرو وعن عمه أبى الأحوص ، وعن بهز بن أسد عن حماد بن سامة عن عبد الملك بن عمير عن أبى الأحوص به ، وهذا حديث جيد قوى الإسناد ، وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التى لا مستند لها ولا دليل عليها ، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أى ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة ، وقوله (إن الله لذو فضل على الناس) قال ابن جرير فى تركه معاجلتهم بالعقوبة فى الدنيا (قلت) ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المذاهب فى الدنيا ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم فى دنياهم أو دينهم (ولكن أكثرهم لا يشكرون) بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما . وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهل الكتاب فيما استدعوه فى دينهم . وقال ابن أبي حاتم فى تفسير هذه الآية حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى حدثنا رباح حدثنا عبد الله بن سليمان حدثنا موسى بن الصباح فى قوله عز وجل (إن الله لذو فضل على الناس) قال إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل فيقومون بين يدى الله عز وجل ثلاثة أصناف فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول : عبدى لماذا عملت؟ فيقول يارب خلقت الحنة وأشجارها وثمارها وأثمارها وحوارها ونعيمها وما أعددت لأهل طاعتك فيها فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى شوقا إليها - قال - فيقول الله تعالى عبدى إنما عملت للحنة هذه الجنة فادخلها ومن فضلى عليك قد أعتقتك من النار ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى

فيدخل هو ومن معه الجنة - قال - ثم يؤتى برجل من الصف الثاني فيقول عبدي لماذا عملت فيقول يا رب خلقت ناراً وخلقت أغلالها وسعيرها ومومها ويحمومها وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها فأسهرت ليلي وأظلمات نهاري خوفاً منها فيقول عبدي إنما عملت ذلك خوفاً من نارى فإنى قد أعتقتك من النار ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى فيدخل هو ومن معه الجنة . ثم يؤتى برجل من الصف الثالث فيقول عبدي لماذا عملت ؟ فيقول رب حباً لك وشوقاً إليك وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظلمات نهاري شوقاً إليك وحباً لك . فيقول تبارك وتعالى : عبدي إنما عملت حباً لى وشوقاً إلى فتجتلى له الرب جل جلاله ويقول ها أنا ذا فانظر إلى ثم يقول من فضلى عليك أن أعتقتك من النار وأبيحك جنتى وأزيرك ملائكتى وأسلم عليك بنفسى . فيدخل هو ومن معه الجنة

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين (وعنده مفايح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعاها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) الآية وقال تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) الآية وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين للمأمورين بالعبادة كما قال تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) ولهذا قال تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) أى إذ تأخذون فى ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى أن أولياءهم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم بهم ، فكل من كان تقياً كان لله ولياً (لا خوف عليهم) أى فما يستقبلونه من أهوال الآخرة (ولا هم يحزنون) على ما وراءهم فى الدنيا ، وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله ، وقد ورد هذا فى حديث مرفوع كما قال البراز حدثنا على بن حرب الرازى حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري وهو القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رجل يارسول الله من أولياء الله ؟ قال « الذين إذا رؤوا ذكر الله » ثم قال البراز وقد روى عن سعيد مرسلاً ، وقال ابن جرير حدثنا أبو هشام الرفاعى حدثنا أبو فضيل حدثنا أبى عن عمارة بن القعقاع عن أبى زرعة عن عمرو بن جرير البجلي عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله عباداً يعظمهم الأنبياء والشهداء » قيل من هم يا رسول الله لعلمنا بحبهم ؟ قال « هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ثم رواه أيضاً أبو داود من حديث جرير عن عمارة

ابن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله وهذا أيضا إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمرو بن الخطاب والله أعلم ، وفي حديث الإمام أحمد عن أبي النضر عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ « يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا في الله يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها يفزع الناس ولا يهرعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » والحديث مطول وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن الأعمش عن ذكوان بن أبي صالح عن رجل عن أبي الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » وقال ابن جرير حدثني أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر عن أبي الدرداء في قوله (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال سألت عن هذه الآية فقال : لقد سألت عن شيء ما سمعت أحدا سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله ﷺ فقال « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له بشرها في الحياة الدنيا وبشرها في الآخرة الجنة » ثم رواه ابن جرير عن سفيان عن ابن النكدر عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية فذكر نحو ما تقدم ثم قال ابن جرير حدثني المثني حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح قال : سمعت أبا الدرداء سئل عن هذه الآية (الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى) فذكر نحوه سواء وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبان حدثنا يحيى عن أبي سلمة عن عباد بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فقال « لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمتي - أو قال أحد قبلك - تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن عمران الفطان عن يحيى بن أبي كثير به ، ورواه الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير فذكره ورواه علي بن المبارك عن يحيى بن أبي سلمة قال : نبثنا عن عباد بن الصامت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فذكره ، وقال ابن جرير حدثني أبو حميد الحمصي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحموشي عن حميد بن عبد الله المزني قال : أتى رجل عباد بن الصامت فقال آية في كتاب الله أسألك عنها قول الله تعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا) فقال عباد ما سألتني عنها أحد قبلك سألت عنها نبي الله فقال مثل ذلك « ما سألتني عنها أحد قبلك الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن في المنام أو ترى له » ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد ابن صفوان عن عباد بن الصامت أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة فما بشرى الدنيا ؟ قال « الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له . وهي جزء من أربعة وأربعين جزءا أو سبعين جزءا من النبوة » وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا بهز حدثنا حماد حدثنا أبو عمران عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أنه قال يا رسول الله : الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ، ويثنون عليه به فقال رسول الله ﷺ « تلك عاجل بشرى المؤمن » رواه مسلم ، وقال أحمد أيضا حدثنا حسن يعني الأشيب حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال « (لهم البشرى في الحياة الدنيا) - قال - الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعة وأربعين جزءا من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها ، ومن رأى سوى ذلك فأنما هو من الشيطان ليحزنه فلينفث عن يساره ثلاثا وليكبر ولا يخبر بها أحدا » لم يخرجه وقال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا ابن وهب حدثني عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمع حدثنا عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال « لهم البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » وقال أيضا ابن جرير حدثني محمد بن أبي حاتم المؤدب حدثنا عمار ابن محمد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) - قال - في

الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهي في الآخرة الجنة « ثم رواه عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة أنه قال : الرؤيا الحسنة بشرى من الله ، وهي من المبشرات هكذا رواه من هذه الطرق موفوفا ، وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر حدثنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الرؤيا الحسنة هي البشرى يراها المسلم أو ترى له » وقال ابن جرير حدثني أحمد بن حماد الدولابي حدثنا سفيان عن عبيد الله بن أبي يزيد عن أبيه عن سباع بن ثابت عن أم كريب السكبية سمعت رسول الله ﷺ يقول « ذهب النبوة وبقيت المبشرات » وهكذا روى عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة . وقيل المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى (إن الدين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشاءون * نزلنا من غفور رحيم) وفي حديث البراء رضى الله عنه أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة يبص الوحوه يبص الثياب فقالوا اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فيه كما تسيل القطرة من فم السقاء ، وأما بشرى في الآخرة فكما قال تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) وقال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) وقوله (لا تبدل لكلمات الله) أى هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة (ذلك هو الفوز العظيم)

﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ (ولا يحزنك) قول هؤلاء الشركين واستعن بالله عليهم ونوكل عليه فإن العزة لله جميعا أى جميعها له ولرسوله وللمؤمنين (هو السميع العليم) أى السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم ، ثم أخبر تعالى أنه له ملك السموات والأرض وأن الشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئا لا ضرا ولا نفعا ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخريصهم وكذبهم وإفكهم ، ثم أخبر أنه الذى جعل لعباده الليل ليسكبوا فيه ، أى يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم (والنهار مبصر) أى مضيا لما شئهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويسندون على عظمتها خالقها ومقدرها ومسيرها

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنْ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكٰذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعْنٰ فِي الدُّنْيَا نٰمًا إِنْ شَاءَ رَبُّنَا لَنُرْسِلَنَّ فِيهِمُ الصَّٰلِحِينَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يقول تعالى منكرأ على من ادعى أن له (ولدا سبحانه هو الغنى) أى تقدس عن ذلك هو الغنى عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه (له ما في السموات وما في الأرض) أى فكيف يكون له ولد وما خلق وكل شيء مملوك له عبده (إن عندكم من سلطان بهذا) أى ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان (أتقولون على الله ما لا تعلمون) إنكار ووعيد أ كيد وتهديد شديد كقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا * تكاد السموات يفتطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا

أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً * ثم توعده تعالى الكاذبين عليه المقتربين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة فأما في الدنيا فإنهم إذا استدبرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً (ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ) كما قال تعالى ههنا (متاع في الدنيا) أي مدة قريبة (ثم إلينا مرجعهم) أي يوم القيامة (ثم نذيقهم العذاب الشديد) أي الموجع المؤلم (بما كانوا يكفرون) أي بسبب كفرهم وافتراءهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الإفك والزور

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِبَآئِتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلُتْكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِبَآئِتِنَا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَنذِرِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (واتل عليهم) أي أخبرهم واقصص عليهم أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك (نبأ نوح) أي خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكتهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليجذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك (إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم) أي عظم عليكم (مقامي) أي فيكم بين أظهركم (وتذكيري) أي إياكم (بآيات الله) أي بحججه وبراهينه (فعلى الله توكلت) أي فاني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أولاً (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) أي فاجتمعوا أئمتهم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن (ثم لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً) أي ولا يجعلوا أمركم عليكم ملتبسا ، بل افضلوا حالكم معي فان كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلي ولا تنظرون أي ولا تؤخروني ساعة واحدة أي مهما قدرتم فافعلوا فاني لا أباليكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء كما قال هود لقومه (إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدي في جميعائهم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم) الآية . وقوله (فان توليتم) أي كذبتهم وأدبرتم عن الطاعة (فما سألتكم من أجر) أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً (إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) أي وأنا ممثلاً ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم ، وان تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم كما قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) قال ابن عباس سبيلاً وسنة فهذا نوح يقول (وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال تعالى عن إبراهيم الخليل (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وقال يوسف (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وأحقني بالصالحين) وقال موسى (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقالت السحرة (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) وقالت بلقيس (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) . وقال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا) وقال تعالى (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) وقال خاتم الرسل وسيد البشر صلى الله عليه وسلم (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) أي من هذه الأمة ، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد » أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت شرائعنا وذلك معنى قوله أولادى علات وهم الاخوة من أمهات شتى والأب واحد ، وقوله تعالى (فكذبوه فنجيناه ومن معه) أي على دينه (في الفلك) وهي السفينه (وجعلناهم خلفاً) أي في الأرض (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة النذرين) أي يا محمد

كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات أى بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) أى لما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلا إليهم كقوله تعالى (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم) الآية وقوله (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) أى كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسول وأنجى من آمن بهم وذلك من بعد نوح عليه السلام فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام فبعث الله إليهم نوحا عليه السلام ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . وقال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، وقال الله تعالى (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) الآية ، وفي هذا انذار عظيم لمشركى العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك ؟

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ * قَالَ مُّوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفَاحُشُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ ءَالِكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى (ثم بعثنا) من بعد تلك الرسل (موسى وهارون إلى فرعون وملئه) أى قومه (بآياتنا) أى حججنا وبراهيننا (فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أى استكبروا عن اتباع الحق والافتقاد له وكانوا قوما مجرمين (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وهتان كما قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) الآية (قال) لهم (موسى) منكرا عليهم (أتقولون للحق لما جاءكم أسحرون) ولا يفلاح الساحرون * قالوا أجئتنا لنلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) أى الدين الذى كانوا عليه (وتكون لكم الكبرياء) أى العظمة والرياسة (فى الأرض وما نحن لكم بمؤمنين)

وكثيرا ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون فى كتابه العزيز لأنها من أعجب القصص فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر فسخره القدر أن ربه هذا الذى يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بين أظهرهم ورزقه النبوة والرسالة والتكليم وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه هذا ما كان عليه فرعون من عظمة الملكة والسلطان ، فجاءه برسالة الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام ، فتعرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية ، والنفس الحبيثة الأبية وقوى رأسه وتولى بركنه وادعى ماليس له وتجهرم على الله وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بنى إسرائيل والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التى لاتنام ولم تزل الحاجة والمحادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئا بعد شيء : ومرة بعد مرة مما يبهز العقول ويدهش الألباب مما لا يقوم له شيء ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله (وما تأتيهم

من آية إلهي أكبر من أخها) وصمم فرعون وملأه فبحمهم الله على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرفهم في صبيحة واحدة أجمعين (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُنْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَال لَّهُمْ مُوسَى الْقَوْمَا أَنْتُمْ مُلَقُونَ * فَلَمَّا أَلْقُوا قَال مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف وقد تقدم الكلام عليها هنا كوفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يهرج على الناس ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين، بزخارف السحرة والشعبدنين، فانعكس عليه النظام ولم يحصل له ذلك المراد، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام (وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون) فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار، على رسول عالم الأسرار فخاب وخسر الجنة واستوجب النار (وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أتم ملقون) وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل (قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا) فأراد موسى أن تكون البداية منهم ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم. ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (فأوحى في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألقى مافى يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) فعند ذلك قال موسى لما ألقوا (ما جئتم به السحر إن الله سابطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا عبد الرحمن يعني الدشتكي أخبرنا أبو جعفر الرازي عن ليث وهو ابن أبي سليم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور الآية التي من سورة يونس (فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سابطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) والآية الأخرى (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) إلى آخر أربع آيات وقوله (إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)

﴿ قَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِيَةُ مَنْ قَوْمِهِ عَلَى حَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَائِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الندرية وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملته أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون لعنه الله كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعنوة وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفا شديدا. قال العوفي عن ابن عباس (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) قال فان الندرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وروى على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) يقول بني إسرائيل وعن ابن عباس والضحاك وقادة الندرية القليل وقال مجاهد في قوله (إلا ذرية من قومه) قال هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم واختار ابن جرير قول مجاهد في الندرية أنها من بني إسرائيل

لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين ، وفي هذا نظر لأنه أراد بالنزيرة الأحداث والشباب وانهم من بني إسرائيل فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به وقد كانوا يعرفون نعمته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ولهذا لما بلغ همدنا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئا ، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى و (قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل (على خوف من فرعون وملئهم) أى وأشرف قومهم أن يفنهم ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم لكنه كان طاويا إلى فرعون متصلا به متعلقا بحاله ومن قال إن الضمير في قوله وملئهم عائد إلى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد وإن كان ابن جرير قد حكاها عن بعض النحاة. وما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَآمَنَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبني إسرائيل (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) أى فإن الله كاف من توكل عليه (أليس الله بكاف عبده) (ومن ينوكل على الله فهو حسبه) وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى (فاعبده وتوكل عليه) (فل هو الرحمن آمنابه وعليه توكلنا) (رب المشرق والمغرب لإله إلا هو فاتخذة وكىلا) وأمر الله تعالى للمؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة (إياك نعبد وإياك نستعين) وقد امثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا (على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أى لا تطفرهم باوتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك هكذا روى عن أبي مجاز وأبي الصحنى ، وقال ابن أبي نجيح وغيره عن مجاهد لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعداب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا وقال عبد الرزاق أن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) لا تسلطهم علينا فيفتنونا وقوله (ونجنا برحمتك) أى خلصنا برحمة منك وإحسان (من القوم الكافرين) أى الذين كفروا الحق وستره ونحن قد آمننا بك وتوكلنا عليك .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا مِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى سبب انجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوا أى يتخذوا لقومهما بمصر بيوتا ، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى (واجعلوا بيوتكم قبلة) فقال الثورى وغيره عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس (واجعلوا بيوتكم قبلة) قال أمروا أن يتخذوها مساجد ، وقال الثورى أيضا عن ابن منصور عن إبراهيم (واجعلوا بيوتكم قبلة) قال كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم وكذا قال مجاهد وأبو مالك والربيع بن أنس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبوه زيد بن أسلم وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة) وفي الحديث كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى أخرجه أبو داود ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية (واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) أى

بالثواب والنصر القريب ، وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة ، وقال مجاهد (واجعلوا بيوتكم قبلة) لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة السكبة يصلون فيها سرّاً وكذا قال قتادة والضحاك وقال سعيد بن جبير (واجعلوا بيوتكم قبلة) أى يقابل بعضها بعضاً

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملكه لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظالما وعلاوا وتكبرا وعتوا قال موسى (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة) أى من أثاث الدنيا ومتاعها (وأموالا) أى جزيلة كثيرة (في) هذه (الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) بفتح الياء أى أعطيهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به اليهم استدراجاً منك لهم كقوله تعالى (لفتنهم فيه) وقرأ آخرون ليضلوا بضم الياء أى ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم (ربنا اطمس على أموالهم) قال ابن عباس ومجاهد أى أهلكها ، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت ، وقال قتادة بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة ، وقال محمد بن كعب القرظي جعل سكرهم حجارة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث حدثنا يحيى بن أبي بكير عن أبي معشر حدثني محمد بن قيس أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز حتى بلغ (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا) إلى قوله (ربنا اطمس على أموالهم) الآية فقال عمر يا أبا حمزة أى شيء اطمس ؟ قال : عادت أموالهم كلها حجارة ، فقال عمر بن عبد العزيز لغلामله ائتمني بكيس فجاهه بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة وقوله (واشدد على قلوبهم) قال ابن عباس أى اطبع عليها (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضاضة لله ولدينه على فرعون وملكه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يحيىء منهم شيء كما دعانوح عليه السلام فقال (رب لا تنذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلد إلا فاجراً كفاراً) ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فهم هذه الدعوة التي أمن عليها أخوه هرون فقال تعالى (قد أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمْ) قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس دعا موسى وأمن هرون أى قد أجبنا كما فيما سألتنا من تدمير آل فرعون ، وقد يحتج بهذه الآية من يقول إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها لأن موسى دعا وهرون أمن ، وقال تعالى (قد أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمُوا) الآية أى كما أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمُوا على أمرى قال ابن جريج عن ابن عباس : فاستقيا فامضيا لأمرى وهي الاستقامة قال ابن جريج يقولون إن فرعون مكث بعدهذه الدعوة أربعين سنة ، وقال محمد بن كعب وعلى بن الحسين أربعين يوماً

﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ

ءَايَاتِنَا لَعْفُلُونَ ﴿١﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده فان بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى النرية وقد كانوا استعاروا من القبط حليا كثيرا فخرجوا به معهم فاشتد حق فرعون عليهم فأرسل في المدائن حاشرين بجمعون له جنوده من أقاليمه فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلاطان في سائر مملكته فلحقوهم وقت شروق الشمس (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون) وذلك أنهم لما انهبوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه ؟ فيقول إني أمرت أن أسلك ههنا (كلا إن معي ربي سيهدين) فعند ما ضاق الأمر اتسع فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فاضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل العظيم وصار اثني عشر طريقا لكل سبط واحد وأمر الله الريح فنشفت أرضه (فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى) وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبايك ليرى كل قوم الآخرين لثلا يظنوا أنهم هلكوا . وجاوزت بنو إسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى وهو في مائة ألف أدم سوى بقية الألوان ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع وهيات ولات حين مناص ، نفذ القدر ، واستجيب الدعوة . وجاء جبريل عليه السلام على فرس وديق حائل فر إلى جانب حصان فرعون فحمم إليها واقطم جبريل البحر فافتحم الحصان وراءه ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئا فتجلد لأمرائه وقال لهم ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا فافتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل في ساقهم لا يترك منهم أحدا إلا ألحقه بهم ، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم وتراكت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من الساميين) فآمن حيث لا ينفعه الإيمان (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون) ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال (آلآن وقد عصيت قبل) أي أهذا الوقت تقول ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه (وكنت من المفسدين) أي في الأرض الذين أضلوا الناس (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل - قال - قال لي جبريل لو رأيتني وقد أخذت من حال (١) البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة » ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم من حديث حماد بن سلمة به ، وقال الترمذي حديث حسن ، وقال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة » وقدرناه أبو عيسى الترمذي أيضا وابن جرير أيضا من غير وجه عن شعبة به فذكر مثله ، وقال الترمذي حسن غريب صحيح ، ووقع في رواية عند ابن جرير عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة عن عطاء وعدى عن سعيد عن ابن عباس رفعه أحدهما فكأن الآخر لم يرفع فأنه أعلم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى السقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) قال فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحبال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه ، وكذا رواه ابن جرير عن سفیان بن وكيع عن أبي خالد به

(١) حال البحر : طينه الاسود .

موقوفا ، وقد روى بن حديث أبي هريرة أيضا فقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا حكام عن عنبسة هو ابن أبي سعيد عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال لي جبريل يا محمد لورأتني وأنا أغظه وأدس من الحال (١) في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له » يعنى فرعون . كثير بن زاذان هذا قال ابن معين لا أعرفه ، وقال أبو زرعة وأبو حاتم مجهول وباقي رجاله ثقات ، وقد أرسل هذا الحديث جماعة من السلف قتادة وإبراهيم التيمي وميمون بن مهران ونقل عن الضحاك بن قيس أنه خطب بهذا للناس فأنه أعلم وقوله (فالיום ننجيك بيدك لتسكون لمن خلفك آية) قال ابن عباس وغيره من السلف إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويا بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو السكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه ولهذا قال تعالى (فالיום ننجيك) أى نرفعك على نشز من الأرض (بيدك) قال مجاهد بجسدك ، وقال الحسن بجسم لاروح فيه ، وقال عبد الله بن شداد سويا صحيحا أى لم يتمزق ليحققوه ويعرفوه ، وقال أبو صخر بدرعك . وكل هذه الأقوال لا منافاة بينهما كما تقدم والله أعلم وقوله (لتسكون لمن خلفك آية) أى لتسكون لبني إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك وأن الله هو القادر الذى ناصية كل دابة بيده وأنه لا يقوم لغضبه شيء ولهذا قرأ بعضهم (لتسكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أى لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها ، وقد كان إهلاكهم يوم عشوراء كما قال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال « ما هذا اليوم الذى تصومونه ؟ » فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي ﷺ لأصحابه « أتم أحق بموسى منهم فصوموه »

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية الدنيوية وقوله (مباءاً صدق) قيل هو بلاد مصر والشام ما يلي بيت المقدس ونواحيه فان الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها كما قال الله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) وقال في الآية الأخرى (فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل) وقال (كم تركوا من جنات وعيون) الآيات ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهى بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالبا بيت المقدس وكان فيه قوم من العمالقة فنكل بنو اسرائيل عن قتالهم فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام وخرجوا بعدها مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختصر حيناً من الدهر ثم عادت إليهم ثم أخذها ملوك اليونان فكانت أحكامهم مدة طويلة وبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام في تلك المدة فاستعانت اليهود قبهم الله على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم ووشوا عندهم وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه فرفعه الله إليه وشبه لهم بعض الحوارين بمشيئة الله وقدره فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيماً ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية وكان فيلسوفاً قبل ذلك فدخل في دين النصارى قيل تقيه وقيل حيلة ليفسده فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة بدعوها وأحدثوها فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار والصوامع والهيكل والمعابد والقلايات وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير

وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامه والقفار ، واسحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم وبني هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية والقمامة وبيت لحم وكنائس بلاد بيت المقدس ومدن حوران كبرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة وعبدوا الصليب من حينئذ وصلوا إلى الشرق وصوروا الكنائس ، وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ووضعوا له الأمانة الحقة التي يسمونها الكبيرة وصدقوا له القوانين وبسط هذا بطول . والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضی الله عنهم وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضی الله عنه والله الحمد والمنة وقوله (ورزقناهم من الطيبات) أى الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً وقوله (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) أى ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم أى ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس ، وقد ورد في الحديث : أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار . قيل من هم يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي » رواه الحاكم في مستدرکه بهذا اللفظ وهو في السنن والمسند ولهذا قال الله تعالى (إن ربك يقضى بينهم) أى يفصل بينهم (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

قال قتادة بن دعامة بلغنا أن رسول الله ﷺ قال « لا أشك ولا أسأل » وكذا قال ابن عباس وسعيد ابن جبير والحسن البصرى وهذا فيه تلميح للأمة وإعلام لهم أن صفة نبهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) الآية ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ولهذا قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) أى لا يؤمنون إيماناً ينفعهم بل حين لا ينفخ نفساً إيمانها ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه قال (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) كما قال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) ثم قال تعالى

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَازَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكلمها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم كقوله تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وفي الحديث الصحيح « عرض على الأنبياء فجعل النبي يمر معه الفئام من الناس والنبي يمر معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد » ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي ، والغرض ، أنه لم توجد قرية آمنت

بكلها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واسكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخروا كما قال تعالى (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخرى مع الدينوى أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين (أحدهما) إنما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية (والثاني) فيها قوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتناهم إلى حين) فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان متخذ من العذاب الأخرى وهذا هو الظاهر والله أعلم . وقال قتادة في تفسير هذه الآية لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم كذب الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجزوا إلى الله أربعين ليلة فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ، قال قتادة وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل وكذا روى عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف وكان ابن مسعود يقرؤها (فهلا كانت قرية آمنت) وقال أبو عمران عن أبي الجلد قال لما نزل بهم العذاب جعل يدور على رءوسهم كقطع الليل المظلم فمشوا إلى رجل من علمهم فقالوا علمنا دعاء ندعوا به لعل الله أن يكشف عنا العذاب فقال قولوا يا حي حين لا حي ، يا حي يحيى الوتى ، يا حي لا إله إلا أنت ، قال فكشف عنهم العذاب . وعام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصافات إن شاء الله

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلِّهِمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَاقِلُونَ ﴾

يقول تعالى (ولو شاء ربك) يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جتهد به فآمنوا كلهم ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقال تعالى (أفلم يأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً) ولهذا قال تعالى (أفأنت تكره الناس) أى تلومهم وتلجئهم (حتى يكونوا مؤمنين) أى ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله (يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين) (إنك لا تهدي من أحببت) (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد الهدى من يشاء المضل لمن يشاء لعله وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس) وهو الخبال والضلال (على الذين لا يعقلون) أى حجج الله وأدلته ، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * قَهْلَ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات الباهرة لدوى الأبواب ، مما في السموات من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما وإيلاج أحدهما

في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يقصر هذا ويطول هذا ، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والروع والأزاهير وصنوف النبات وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب ، وما في البحر من العجائب والأمواج وهو مع هذا مسخر مذلل للسالكين يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه . وقوله (وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) أى وأى شيء تغني الآيات السماوية والأرضية والرسول بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون كقوله (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) الآية . وقوله (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) أى فهل ينظروهم هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم (قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين * ثم ننحى رسلنا والذين آمنوا) أى ونهلك المكذبين بالرسول (كذلك حقا علينا ننحى المؤمنين) حقا أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أى أنه قال « إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت (١) غضبي »

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ * وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذى أوجاه الله إلى فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله وحده لا شريك له وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم فان كانت آلهتكم التى تدعون من دون الله حقا فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرنى فانها لا تضر ولا تنفع وإنما الذى بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وأمرت أن أكون من المؤمنين وقوله (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) الآية أى أخلص العبادة لله وحده حنيفا أى منحرفا عن الشرك ولهذا قال (ولا تكونن من المشركين) وهو معطوف على قوله (وأمرت أن أكون من المؤمنين) وقوله (وإن يمسسك الله بضر) الآية فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه فى ذلك أحد وهو الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له ، روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة صفوان بن سليم من طريق عبد الله بن وهب أخبرنى يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى عن صفوان بن سام عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات ربكم ، فان لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » ثم رواه من طريق الليث عن عيسى بن موسى عن صفوان عن رجل من أشجع عن أبى هريرة مرفوعا بمثله سواء وقوله (وهو الغفور الرحيم) أى لمن تاب إليه ولو من أى ذنب كان حتى من الشرك به فانه يتوب عليه

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

يقول تعالى أمرا لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أن الذى جاءهم به من عند الله هو الحق الذى لا مرية

(١) فى السجدة المسكية : تغلب .

فيه ولا شك فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنه يرجع وبال ذلك عليه (وما أنا عليكم بوكيل) أى وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى وقوله (واتبع ما يوحى إليك واصبر) أى تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك واصبر على مخالفة من خالفك من الناس (حتى يحكم الله) أى يفتح بينك وبينهم (وهو خير الحاكمين) أى خير الفاتحين بعدله وحكمته .

﴿ تفسير سورة هود عليه السلام وهي مكية ﴾

قال الحافظ أبو يعلى حدثنا خلف بن هشام الزار حدثنا أبو الأحوص عن أبي إسحق عن عكرمة قال : قال أبو بكر سألت رسول الله ﷺ ما شريك ؟ قال « شيتنى هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » وقال أبو عيسى الترمذى حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن شيان عن أبي إسحق عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر يا رسول الله قد شبت قال « شيتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » وفى رواية « هود وأخواتها » وقال الطبرانى حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا حجاج بن الحسن حدثنا سعيد بن سلام حدثنا عمر بن محمد عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شيتنى هود وأخواتها : الواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت » وفى رواية « هود وأخواتها » وقد روى من حديث ابن مسعود نحوه فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى فى معجمه الكبير حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا أحمد بن طارق الراشى حدثنا عمرو بن ثابت عن أبي إسحق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن أبابكر قال يا رسول الله ما شريك ؟ ، قال « هود والواقعة » . عمرو بن ثابت متروك وأبو إسحق لم يدرك ابن مسعود والله أعلم

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الرَّكِيبُ أَحْكَمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ نِى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق ، وأما قوله (أحكمت آياته ثم فصلت) أى هى محكمة فى لفظها مفصلة فى معناها فهو كامل صورة ومعنى ، هذا معنى ماروى عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير . وقوله (من لدن حكيم خبير) أى من عند الله الحكيم فى أقواله ، وأحكامه خبير بعواقب الأمور (ألا تعبدوا إلا الله) أى نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له كقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقوله (إني لکم نذير وبشير) أى إني لکم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن أطعتموه كما جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال « يا معشر قريش أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ألستم مصدقى ؟ » فقالوا ما جربنا عليك كذبا قال « فإني نذير لکم بين يدي عذاب شديد » وقوله (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضلا) أى فى الدنيا (إلى أجل مسمى والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تسقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك) يمتعكم متاعا حسنا (أى فى الدنيا) إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضلا (أى فى الدار الآخرة قاله قتادة كقوله (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن